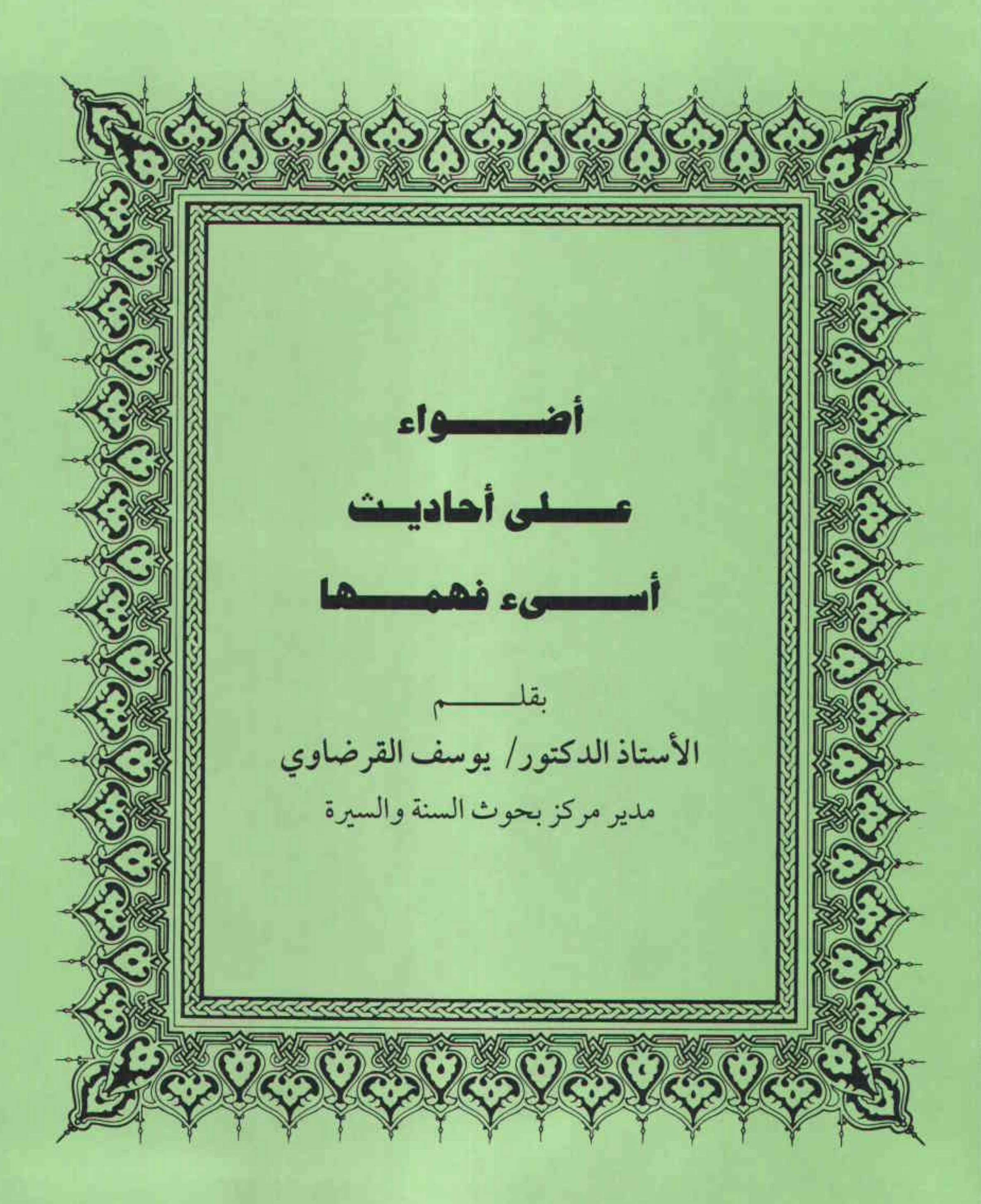


أضـــواء على أحاديـث أســيء فهمــها

بقلـــم

الأستاذ الدكتور/ يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

- ٤٢٣ -

١ - حديث (بدأ الاسلام غريباً) :

□ س : من الأحاديث المشتهرة على الألسنة والاقلام : حديث (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ، فطوبى للغرباء).

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية؟ وما المراد به؟ وهل كلمة (غريبا) من الغربة أو من الغرابة؟ فقد سمعت بعض المتحدثين في (الاذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفى أن يكون من (الغربة).

وإذا كان من الغربة كما هو الشائع والمتبادر ، فهل يعنى هذا ضعف الاسلام وأفول نجمه؟

وهل هناك دلائل على انتصار الاسلام مرة أخرى كما انتصر في القرون الأولى للهجرة؟

■ ج : الحديث صحيح الاسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن، وهو مروى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم.

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة، والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود، وابن ماجه عن أنس، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد، وابن عباس، رضى الله عنهم جميعاً، كما في الجامع الصغير.

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء).

وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها، وبقى الكلام في معناه.

ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان) أو ما يسمى (أحاديث الفتن) و(اشراط الساعة) يفهمها بعض الناس فهماً يوحي باليأس من كل عمل للاصلاح والتفسير.

ولا يُتصور أن يدعو الرسول الكريم (ﷺ) الأمة إلى اليأس والقنوط، وترك الفساد يستشرى في الناس والمنكرات تنخر في عظام المجتمع، دون أن يصنع الناس شيئاً، يقوم ما أعوج، أو يصلح ما فسد.

وكيف يُتصور ذلك، وهو (ﷺ) يأمر بالعمل لعمارة الأرض، الى أن تلفظ الحياة آخر انفاسها، كما يتضح ذلك من الحديث الشريف : «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة،

فإن إستطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يغرسها، فليغرسها» .[1]

ومعنى هذا إنـه لن يأكل مـن ثمر هذا الغرس ولا أحد مـن بعده، مادامت السـاعة قد قامت، أو توشك أن تقوم.

فاذا كان هذا مطلوباً في أمر الدنيا، فأمر الدين أعظم وأجل، ولابد من العمل من أجله إلى آخر رمق في هذه الحياة.

أما معنى كلمـة (غريباً) فالمتبادر أنها من (الغـربة) لا من (الغرابة) بدليـل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصف بالغربة لا الغرابة.

وانما كانت غـربتهم من غربـة الاسلام الذي يؤمنون بـه ويدعوه اليه. وهـذا هو المعنى المفهوم مـن كلمة (غريـب) من أكثر مـن حديث مثـل (كن في الدنيـا كأنك غـريب) رواه البخاري.

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات في هذا الحديث، في وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغرابة.

هذا الى أن الواقع اليوم وفي عصور خلت، يدل على غربة الاسلام في دياره ذاتها، وبين أهله أنفسهم. حتـى أن من يدعو إلى الإسلام الحق يعاني الاضطهـاد والتنكيل، أو الشنق أو الاغتيال.

ولكن هل هذه الغـربة عامة وشاملة ودائمـة أو هي غربة جزئية ومـؤقتة؟ فقد تكون في بلد دون آخر، وفي زمن دون آخر. وبين قوم دون غيرهـم. كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضى الله عنه.

والذي أراه أن الحديث يتحدث عن دورات أو (موجـات) تأتي وتذهب، وان الإسلام يعـرض لـه مـا يعرض لكـل الـدعـوات والـرسـالات من القـوة والضعـف، والامتـداد والانكماش، والازدهار والـذبول، وفق سنن الله التـي لا تتبدل. فهو كغيره خـاضع لهذه السنن الالهية، التي لا تعامل الناس بوجهين، ولا تكيل لهم بكيلين، فما يجرى على الأديان والمذاهب يجرى على الإسلام، وما يجرى على سائر الأمم يجرى على أمة الإسلام.

---

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد عن أنس، وكذا الطيالسي والبزار، وقال الهيثمي : رواته ثقات اثبات.

فالحديث ينبىء عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات، ودورة من الدورات، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته، ويقوم من كبوته، ويخرج عن غربته، كما فعل حين بدأ.

فقد بدأ غريباً، ولكنه لم يستمر غريباً، لقد كان ضعيفاً ثم قوى مستخفياً ثم ظهر، محدوداً ثم انتشر، مضطهداً ثم انتصر.

وسيعود غريباً كما بدأ، ضعيفا ليقوى، ثم يقوى، مطارداً ليظهر ثم يظهر على الدين كله، ملاحقاً مضطهداً لينتشر وينتشر ثم ينتصر وينتصر.

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه.

ومما يدل على أن الحديث لا يعنى الاستسلام أو اليأس، ولا يدعو إليه بحال، ما جاء في بعض الروايات من وصف لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة، ويحيون ما أماته الناس منها.

فهو قوم ايجابيون بناؤون مصلحون، وليسوا من السلبيين أو الانعزاليين أو الاتكاليين، الذين يدعون الأقدار تجرى في أعنتها ولا يحركون ساكناً، أو ينبهون غافلاً.

ومن المفيد أن انقل هنا ما كتبه الامام ابن القيم حول هذا الحديث، عند شرح كلام شيخه الهروى في باب (الغربة) من (منازل السائرين) الى مقامات **﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾** فقال رحمه اه في (مدارج السالكين):

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض؟ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾** (سورة هود: ١١٦) قال ابن القيم معلقاً وشارحاً: -

(استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن، فان الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية. وهم الذين أشار إليهم النبي (ﷺ) في قوله (بدأ الاسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس)[1] وقال الإمام أحمد:

---

(١) أورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدي، بنحوه وقال: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح، غير بكر بن سليم وهو ثقة (٧/ ٢٧٨)، ومن حديث جابر وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف وقد وثق (٧/ ٢٧٨).

حدثنا عبدالـرحمن بن مهدى عن زهير عن عمرو بن أبى عمـرو - مولى المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبي (ﷺ) قال: (طوبى للغـرباء). قالوا: يـارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: (الذين يزيدون إذا نقص الناس).(١)

فان كـان هذا الحديث بهذا اللفـظ محفوظاً - لم ينقلب على الـرواى لفظه وهو: (الـذين ينقصون إذا زاد الناس) - فمعنـاه: الذين يزيـدون خيراً وايماناً وتقى إذا نقص النـاس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديـث الأعمش عن أبي الأحـوص عن عبدالله بـن مسعود قال: قـال رسول الله (ﷺ): (ان الاسلام بـدأ غريبـا، وسيعود غـريباً كما بدأ، فطـوبى للغـرباء. قيـل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: النُزّاع من القبائل).(٢)

وفي حديث عبدالله بـن عمرو قال: قال النبي (ﷺ) ذات يوم. ونحـن عنده - (طوبى للغربـاء. قيل: ومن الغربـاء يارسول الله؟ قـال: ناس صالحون قليل في نـاس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم).(٣)

وقال أحمد: حدثنـا الهيثم بن جبل حـدثنا محمد بن مسلـم حدثنا عثمان بن عبـدالله عن سليمان بـن هرمـز عـن عبدالله بـن عمـرو عن النبـي (ﷺ) قـال: (أن أحب شـيء الى الله الغرباء. قيـل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بـدينهم. يجتمعون الى عيسى بن مـريم عليه السلام يوم القيامة).(٤)

وفي حديث آخر (بدأ الإسـلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبـى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي، ويعلمونها الناس).(٥)

---

(١) بحثت عن الحديث في مظانـه في المسند فلم أجده، وكذلك لم أجده في (مجمع الزوائد) للهيثمى، ولا اشـار اليه في المعجم المفهرس للكتب التسعة. بل لم أجد المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة في المسند، وفقا لفهرس الشيخ الالبانى. فأما ان يكون ساقطا من المطبوع كما تبينت ذلك مع عقبة بن مـرة الجهنى، فان له ثلاثة أحاديث في المسند، ليس في المطبـوع الا واحد منها، أو يكون أحمد رواه خارج المسند. والله أعلم.

(٢) الحديث في الدارمى برقم (٢٧٥٧) وابن مـاجه برقم (٣٩٨٨) والترمـذى برقم (٢٦٣١) بدونـه السؤال وقال: حسن غـريب صحيح، والبيهقي في الزهد برقم (٢٠٨) والبغوى في شرح السنة، وصححه (١/ ١١٨) حديث (٦٤) نشر المكتب الاسلامى.

(٣) الحديث في المسند وصححـه الشيخ شاكر، كذا أورده الهيثمـى (٧/ ٢٧٨) وقال: رواه احمد والطبرنى في الأوسط، وفيه ابـن لهيعة، وفيه ضعف. وذكره في موضـع آخر جزءاً من حديث وعزاه الى الطبرانـى في الكبير، وقال: له فيه أسانيد، ورجـال أحدهما رجال الصحيح (١٠/ ٢٥٦).

(٤) رواه أحمد في (الزهد) ص ٧٧ وليس في (المسند) كما رواه البيهقى في الزهد برقم (٢٠٦).

(٥) رواه البيهقي في الزهد من حديـث كثير بن عبدالله بن عوف عن أبيه عن جده وهو ضعيـف جدا رقم (٢٠٧) كما رواه الترمذي بهذا السند برقم (٢٦٣٢) وقال: حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح!! ولفظه: (فطوبـى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى). وهذا مما أخذه عليه النقاد ولعله حسنه أو صححه لكثرة شواهده.

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي (ﷺ)، وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك ياأبا عبدالرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي (ﷺ)، وأنا في المسجد، فقال: ما هو؟ قال: ان الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة).(1)

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جدا: سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنون غرباء وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فيهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا، فلا غربة عليهم. وانما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم **﴿وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾** (الأنعام: ١١٦) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره ∴ ولكن من تنأين عنه غريب!

ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله. وهو وحيد غريب خائف جائع. فقال: (يارب وحيد مريض غريب. فقيل له: ياموسى، الوحيد: من ليس له مثلي أنيس. والمريض: من ليس له مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة).

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله (ﷺ) أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه (بدأ غريباً) وأنه (سيعود غريباً كما بدأ) وان (أهله يصيرون غرباء).

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأوو إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله (ﷺ). ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) وضعفه في الزوائد بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر وقال: صحيح ولا علة له عن زيد بن أسلم (١/ ٤) ووافقه الذهبي وانظر: كتابنا: المنتقي من الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقي في الزهد بسند آخر، برقم (١٩٧) عن ابن عمر.

إليهم. فاذا انطلق الناس يوم القيامة مع آليتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم: (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس. ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده).

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها. بل هو آنس ما يكون اذا استوحش الناس. وأشد ما تكون وحشته اذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وان ما داه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبى أمامة عن النبي (ﷺ) قال - عن الله تعالى - (أن أغبط أوليائي عندي: لمؤمن، خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته. أحسن عبادة ربه، وكان رزقه كفافا، وكان مع ذلك غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وصبر على ذلك حتى لقى الله. ثم حلت منيته، [1]، وقل تراثه، وقلت بواكيه). [2]

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي (ﷺ) (رب أشعث أغبر. ذى طمرين لا يؤبه له. لو أقسم على الله لأبره). [3]

وفي حديث أبى ادريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي (ﷺ) قال: (ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: كل ضعيف أغبر، ذى طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره. [4]

وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها. للناس حال وله حال. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي (ﷺ): التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد، وأن

---

(١) نص الترمذي: ثم نفض بيده فقال: عجلت منيته ... الخ ... والمراد بقوله: اغبط الناس: احق من يتمنى الناس مثل حاله. وخفيف الحاذ: أى ضعيف الظهر من العيال. كفافا: أى بقدر الحاجة. لا يشار اليه بالأصابع: أى انه مغمور غير مشهور. ومعنى (عجلت منيته): انه لم يعمر طويلاً، فقد يصاب أو يستشهد في سبيل الله. قل تراثه: لم يترك مالا كثير. قلت بواكيه: ربما لموته في الغربة.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيدالله بن زحر عن على بن زيد عن القاسم، وهو اسناد ضعيف، وان حسنه الترمذى، كما رواه ابن ماجة بنحوه باسناد آخر (٤١١٧) وفيه راويان ضعيفان كما في الزوائد للبوصيري.

(٣) أورده الهيثمي بنحوه في المجمع (١٠/ ٢٦٤) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالله بن موسى التميمي وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح، عن جابر بن هرم، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود، واسناده اجود. وفي صحيح مسلم من حديث ابى هريرة (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) الحديث رقم (٢٦٢٢).

(٤) رواه ابن ماجه (٤١١٥) وفيه سويد بن عبدالعزيز، ضعفوه وحسنه بعضهم لشواهده. انظر: فيض القدير: حديث (٢٨٥٢).

أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب الى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، والى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي (ﷺ) (هم النزاع من القبائل) أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غريباً في حيه وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل، بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقاً حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جداً. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات اتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فان نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعلمهم. والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وارادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شيخهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي (ﷺ): (مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، واعجاب كل ذي رأى برأيه، ورأيت أمراً لا يد لك به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم. فان وراءكم أياماً صبر الصابر فيهم كالقابض على الجمر). (ولهذا جعل للمسلم

الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة.[1] ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال (سألت رسول الله «ﷺ» عن هذه الآية ﴿يا آيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا هديتم﴾ (المائدة : ١٠٥) فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى اذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فان من وراءكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله. قلت : يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال : أجر خمسين منكم)[2] وهذا الأجر انما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فاذا أراد المؤمن ، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذى كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وازرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه[3] . كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وأمامه (ﷺ)، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته، لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة : فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء

---

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر في أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة، وهذا يفتح باب الامل للأجيال اللاحقة، ويؤيده حديث الترمذي (مثل كمثل المطر، لا يدري أوله خير أم آخره).

(٢) رواه ابو داود في الملاحم برقم (٤٣٤١) والترمذي في التفسير برقم (٣٠٦٠) وقال حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤).

(٣)في عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين الى الله، وإلى كتابه وسنة نبيه، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم، ومطاردتها لهم، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضيق عليهم، ثم كيد القوى المعادية للإسلام وما أكثرها عدداً، وأقواها عدة.

والبدع. آمر بالمعروف، ناه عن المنكر، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.[1] اهـ

* بشائر من القرآن بظهور الاسلام من جديد:

أما ما سأل عنه الاخ من وجود بشائر ودلائل على انتصار الاسلام في المستقبل، فهي كثيرة ومتوافرة، في كل من القرآن والسنة، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها، ولا يبرزون إلا ما يوحى ظاهره بالقنوط.

أما القرآن فحسبنا قول الله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**.

وقد تكررت هذه الآية بهذه الصيغة مرتين، في التوبة (آية : ٣٣) وفي الصف (آية : ٩) وفي سورة الفتح **﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾** (آية : ٢٨).

فهذا وعد من الله تعالى بظهور دين الحق - الإسلام - على الدين كله، أي على الأديان كلها، وكان وعد الله حقاً، فلن يخلف الله وعده. ولا زلنا ننتظر تحقيق هذا الوعد: غلبة دين الإسلام وظهوره على جميع الأديان سماوية أو وضعية.

ونضيف الى ذلك قوله تعالى في محاولات أهل الكفر النيل من الإسلام، وعرقلة تقدمه وانتشاره: **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوو كره الكافرون﴾** (الصف: ٨).

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (التوبة : ١٢).

والتعبير القرآني يسخر من هؤلاء حين يشبه محاولاتهم في إطفاء نور الإسلام، كالذي يحاول أن يطفىء الشمس بنفخة من فيه، كأنما يحسبها شمعة ضئيلة من شموع البشر.

وبشارة قرآنية أخرى، وهي قوله تعالى: **﴿ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يغلبون﴾** (الأنفال : ٣٦).

---

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم (جـ ١/ ١٩٤ - ٢٠٠) ط. السنة المحمدية.

* بشـــائر من الأحـــاديث النبـــوية :

وأما المبشرات من الحديث فحسبنا منها هذه الأربعة : -

١ - ما رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذى وصححه وابـن ماجه واحمد عن ثوبان أن النبي (ﷺ) قـال : (إن الله زوى لى الأرض «أى جمعها وضمهـا» فرأيـت مشارقهـا ومغاربها ، وان امتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ...) الحديث ...[١]

وهو يبشر باتساع دولة الإسلام ، بحيـث تضم المشارق والمغارب ، وهذا لم يتحقق من قبل بهذه الصورة ، فنحن بانتظاره كما أخبر الصادق المصدوق .

٢ - مـا رواه ابن حبـان في صحيحه : (ليبلغـن هذا الامـر «يعنـي الإسلام» مـا بلغ الليـل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله هذا الـدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر) .

فاذا كـان الحديث السـابق يبشر بـاتساع دولـة الإسلام ، فهـذا يبشر بانتشـار دين الإسلام ، وبهذا تتكامل قوة الدولة وقوة الدعوة ، ويتحد القرآن والسلطان .

٣ - ما رواه أحمد والدارمى وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

عن أبـى قبيل قال : كنـا عند عبدالله بـن عمرو بن العـاص ، وسئل : أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ، فدعا عبدالله بصنـدوق له حلق قال : فأخرج منه كتابـاً[٢] ، قال : فقال عبدالله : بينما نحن حـول رسول الله نكتب ، إذ سئل رسول الله (ﷺ) : أى المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رمية؟ فقـال رسول الله (ﷺ) : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني قسطنطينية) .[٣]

ورومية هي ما ننطقها اليوم : (روما) عاصمة ايطاليا .

وقد فتحت مدينة هرقل ، على يـد الشاب العثماني ابن الثالثة والعشرين والمعروف في التـاريخ بـاسم (محمـد الفاتـح) فتحها في يـوم الثلاثـاء ٢٠ من جمادى الأولى سنـة

---

(١) ذكره الهيثمى في موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان (١٦٣١ ، ١٦٣٢) .

(٢) هذا يدل على مدى عنايته بما كتبه عن رسول (ﷺ) ، وانه لم يكن وحده يكتب ، لقوله : بينما حول رسول الله نكتـب . وهو يؤكد ما أصبح معلوماً لدى الدارسين اليوم ان كتابة الحديث وتدوينه بدأ في عهد النبي (ﷺ) .

(٣) رواه أحمد برقم (٦٦٤٥) واللفظ له ، وقـال شاكر : اسناد صحيح ، وقال الهيثمي في مجمع الـزوائد (٦/ ٢١٩) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير أبي قبيل وهو ثقة ، والدارمي برقم (٤٩٣) وابن أبي شيبة والحاكم (٣/ ٤٢٢ ، ٤/ ٥٠٨) وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الالباني في الصحيحة برقم (٤) .

٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م.

وبقى فتح المدينة الأخرى: رومية، وهو ما نرجوه ونؤمن به.

ومعنى هذا إن الإسلام سيعود إلى أوروبة مرة أخرى فاتحاً منتصراً، بعد أن طرد منها مرتين: مرة من الجنوب، من الأندلس، ومرة من الشرق بعد أن طرق أبواب فينّا عدة مرات. وظني أن الفتح هذه المرة لن يكون بالسيف، بل سيكون بالدعوة والفكر.

٤ - ما رواه أحمد والبزار - والطبراني ببعضه - عن النعمان بن بشير عن حذيفة: أن النبي (ﷺ) قال:

(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله اذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون فتكون، ثم يرفعها اذا شاء أن يرفعها، ثم تكون، ملكاً عاضاً[1]، فيكون ماشاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكاً جَبَرِيّة[2]، فتكون ماشاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت).[3]

ان فتح رومية وانتشار الإسلا م حتى يبلغ ما بلغ الليل والنهار، واتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشرق والمغرب، إنما هو ثمرة لغرس، ونتيجة لمقدمة، هي عودة الخلافة الراشدة، أو الخلافة المؤسسة على منهاج النبوة، بعد بقاء الملك الجبري، والملك العاص، ما شاء الله أن يبقيا من القرون.

إن بعد الليل فجراً، وإن مع العسر يسراً، وأن المستقبل للإسلام، وقد بدت بشائر الفجر والحمد لله.

---

(١) المال العاض أو العضوض: هو الذي يصيب الرعية فيه عسف وتجاوز، كإنما له أسنان تعضهم عضاً.

(٢) ملك الجبرية: هو الذي يقوم على التجبر والطغيان.

(٣) أحمد في مسند النعمان بن بشير (٤/ ٢٧٣) من طريق الطيالسي، وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٨، ١٨٩) وقال: رواه أحمد والبزار أتم منه، والطبراني ببعضه في الاوسط ورجاله ثقات، وهو في منحة المعبود برقم (٢٥٩٣) وفي كشف الاستار عن زوائد البزار، برقم (١٥٨٨) وصححه الحافظ العراقي في كتابه (محجة القرب إلى محبة العرب) وذكره الألباني في (الصحيحة) برقم (٥).

ومـــن هـــذه البشـــائر :-

١ - ظهور الصحوة الإسلامية، التي أعادت للأمة الثقة بالإسلام، والرجاء في غده، وقد أقلقت أعـداء الإسلام في الداخـل والخارج، وهي جديـرة أن تقود الأمة إلى مـواطن النصر، إذا قـدر الله لها أن يتـولى زمـامهـا المرشدون الـراشـدون، مـن أولى الأيـدي والأبصار، الذين آتاهم الله الفقه في سنن الله، والفقه في دين الله، والحكمة في النظر، والحكمة في العمل ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً**﴾ (البقرة : ٢٦٩).

٢ - انهيار الأنظمة الشموليـة، وخصوصاً الشيوعية التي زعمـت يوماً أنها ستغزو العالم، وتـرث الأديان، وتهزم الفلسفـات، والتي لقيـت أولى هـزائمها على أيـدى إخواننـا المجاهدين في أفغانستان ، والذيـن انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة في التاريخ.

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى، بدءاً بالإتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، وإنتهاء بألبانيا.

٢ - حديث «لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه»

□ س : كنت أقرأ في كتاب ديني ، فصادفني فيه حديث أقشعر له جلدى ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة . فالحديث يقول فيه النبي (ﷺ) : (لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه) .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرني بأن الحديث صحيح ، وإنه من رواية البخاري ، فأُسقط في يدي ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث في صحيح البخارى ، أصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله تعالى؟

فهل معنى هذا الحديث اننا في انحدار دائم ، وتدهور مطرد ، وأننا ننتقل من حسن الى سيىء ، ومن سيىء الى أسوأ ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءاً ، حتى تقوم الساعة؟

هذا مع أن هناك كثيراً من الناس يعتقدون عكس هذا تماما : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علماً بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر في السماء!

ثم إن الحديث يلقى في نفوسنا ان لا أمل في شيء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، مادمنا ننحدر إلى الهاوية يوماً بعد يوم . فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لازمة دائمة لابد ان نخضع لها . حتى تقوم الساعة على لكع بن لكع أى كافر بن كافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتتبعين لما تكتبون بأن لكم في هذا الحديث تأويلاً أودعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلني عليه ، عسى أن يزيح ما بنفسي من قلق وما بقلبي من حيرة وبلبلة .

جزاكم الله عن العلم والإسلام خير الجزاء .

م . ك . ع

الرباط - المغرب

■ ج : الحديث المذكور رواه الإمام البخاري في جامعه الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنده ، ولكن الآفة تأتي هنا من

فهمه فهماً يخالـف سنن الله، أو حقـائق العلم، أو ثوابـت الواقـع، ولا يمكن أن يأتي الدين بما يخالف ذلك، لأن الـدين حق، وهذه الأشياء المذكورة حق، والحق لا يتناقـض. فأما أن يكـون لهذه الأشياء تفسير غير مـا يبدو لنا، أو يكـون للنص الديني تأويل غير الظاهر المتبادر منه.

وأحاديـث (الفتن) وما يتعلـق بها يسمى (آخر الزمـان) أو (اشراط الساعة) يكثـر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغى التأمل الطويل في معانيها، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير.

والحديث المذكور نمـوذج لهذا النوع من الأحاديـث. وقد تعرضت لبيـان معناه، ورد الافهام الخاطئة التى أحاطت به، وذلك في كتابي (كيـف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته في ذلك:

* هـل كـل زمـن شـر ممـا قبـله؟

روى البخارى بسنـده إلى الزبير بن عدى، قـال: أتينا أنس بن مـالك فشكونا إليـه ما نلقى من الحجاج، فقال: إصبروا، فإنه لا يـأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم (ﷺ).

يتخـذ بعض النـاس مـن هذا الحديـث تكـأة للقعود عـن العمـل، ومحاولة الإصـلاح والإنقاذ، مدعيـاً أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقـوط مستمر وهوى متتابع، من درك إلى درك أسفل منه، فهي لا تنتقـل من سيء إلا إلى أسوأ ولا من أسوأ إلا إلى الأسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس ربهم.

وآخرون توقفوا في قبول الحديث، وربما تعجل بعضهم فردَّه، لأنه في ظنه يدعو:

أولاً: إلى اليـأس والقنـوط.

وثانيـاً: إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين.

وثالثـاً: يعارض فكرة (التطور) التي قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعـاً: ينافي الواقع التاريخي للمسلمين.

وخامساً : يعارض الأحاديث التي جاءت في ظهـور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذي عـرف باسـم المهدي) وفي نـزول عيسى ابن مـريم، وإقـامته لـدولة الإسلام وإعلاء كلمته في الأرض كلها.

ومـن الحق علينـا أن نقـول: إن السـابقين مـن علمائنا قـد وقفـوا عنـد هـذا الحديـث مستشكلين (الإطلاق) فيـه. يعنون بالإطـلاق ما فهم مـن الحديث: أن كل زمـن شر من الذى قبلـه، مع أن بعض الأزمنة تكـون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكـن في ذلك إلا زمن عمر بـن عبدالعزيز، وهو بعـد زمن الحجاج - الذي عمـت الشكوى منه - بيسير. وقد اشتهر الخير الذي كـان في زمن عمر بن عبدالعزيز، بـل لو قيل: إن الشر اضمحل في زمانه، لما كان بعيداً، فضلاً عن أن يكون شراً من الذي قبله.

وقـد أجـابوا عــن هــذا بعــدة أجــوبة:

أ - فالإمـام الحسن البصري حمل الحديـث على الأكثر الأغلـب، فقد سئـل عن عمـر ابن عبدالعزيز بعد الحجاج، فقال: لابد للناس من تنفيس!

ب- وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قـوله: (لا يأتى عليكم زمان إلا وهو أشر مما كـان قبله، أمـا إنـى لا أعنـى أميراً خيراً من أمير، ولا عـامـاً خيراً مـن عام، ولكـن علماؤكم وفقهـاؤكم يذهبون، ثـم لا تجدون منهم خلفاً، ويجيء قوم يفتـون برأيهم) وفي لفظ عنـه: (فيثلمون الإسـلام ويهدمونه) ورجـح الحافظ في (الفتـح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا، قائلاً: وهو أولى بالاتباع.

ولكنه في الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه، فالنصوص تدل على أن في الغيب أدوارا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته، ولو لم يكن إلا زمن المهدي والمسيح في آخر الزمان لكفى.

والتاريـخ يثبت أنـه قد جاءت فترات ركـود وجمود في العالم أعقبتهـا أزمنة حـركة وتجديد. ويكفى أن نذكـر مثلا من ظهر في القرن الثامن مـن العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسـلامية في بغداد، وتدهـور الأوضاع في القرن السابـع، مثل شيخ الإسـلام ابن تيميـة وتلميـذه ابن القيـم، وسـائر تلاميـذه في الشـام، والشاطبـي في الأندلس، وابن خلدون في المغرب، وغيرهـم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه (الدرر

الكامة في أعيان المائة الثامنة).

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطى في مصر، وابن الوزير في اليمن، والدهلوي في الهند، والشوكاني والصنعاني في اليمن، وابن عبدالوهاب في نجد، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين.

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه، مستدلا بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً.[1]

جـ - ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذه الحديث ما ذكره الحافظ في (الفتح) بقوله: (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور لكن الصحابي فهم التعميم، فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم - أو جلهم - من التابعين[2]) اهـ.

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضاً: فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين، وقد توفي في زمن عثمان رضى الله عنهما.

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت، والرضا بالمنكر والفساد، ويؤيد السلبية في مواجهة الطغاة المتجبرين في الأرض ...

فالرد على ذلك من عدة أوجه:

أولاً: إن القائل (اصبروا) هو أنس رضى الله عنه، فليس هو من الحديث المرفوع. وإنما استنبطه منه، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم (ﷺ).

ثانياً: إن أنسا لم يأمرهم (بالرضا) بالظلم والفساد، وإنما أمرهم (بالصبر) وفرق كبير بين الأمرين، فإن الرضا بالكفر كفر، وبالمنكر منكر، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد، وقد يصبر المرء على الشيء وهو كاره له، ساع في تغييره.

---

(١) فتح الباري حـ١٦ ص ٢٢٨ ط الحلبي.

(٢) المرجع السابق.

ثالثاً: إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة، مجتهداً أن يعد العدة ، ويتخذ الأسباب، معتضداً بكل من يحمل فكرته، منتهزا الفرصة المواتية، ليواجه قوة الباطل بقوة الحق، وأنصار الظلم بأنصار العدل، وضد الطاغوت بجند الله .

وقد صبر النبي (ﷺ) ثلاثة عشر عاماً في مكة على الأصنام وعبادها، فيصلي بالمسجد الحرام، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً، بل طاف في السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه في عمرة القضاء، وهو يراها ولا يمسها، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها .

ولهذا قرر علماؤنا : أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال .

وعلى هذا لا ينبغى أن يفهم من الوصية بالصبر الإستسلام للظلم والطغيان بل الإنتظار والترقب حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين .

رابعاً : إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين، وإن لم تكن واجبةعلى من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله، فقد جاء في الحديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ، (سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) .

٣ - حديث سحر النبى (ﷺ)

□ س : أنا طالب علم يحب أن يستزيد من المعرفة، ويعطى العلماء حقهم من التقدير والتوقير، وخصوصاً الذين كان لهم حظ وافر في تنوير العقول، وإيقاظ الوعي الإسلامي، وتحريك الهمم والعزائم، للنهوض بالأمة الإسلامية، وإخراجها من حالة الجمود والموات التي ظلت عليها مدة طويلة في الأزمنة الأخيرة.

ومن هؤلاء العلامة السيد رشيد رضا، وقد كنا نعده من دعاة السلف، ومن المدافعين عن السنة، والمقاومين للبدع والضلالات، ولكن علمت أخيراً أنه كذب حديثاً من أحاديث صحيح البخاري، وهو من حديث سحر اليهود للنبى (ﷺ)، تبعاً لشيخه الشيخ محمد عبده، الذي وافق المعتزلة في إنكاره لهذا الحديث.

ومن قراءتي لكتبكم لمست أنكم من المعجبين بالشيخ رشيد رضا رحمه الله فما تفسيركم لهذا الموقف منه؟ وقبل ذلك هل هذا هو موقفه من الحديث فعلاً؟ وكيف يعتبر إماماً في الدين من ينكر أحاديث الصحيحين أو أحدهما؟

أرجو بيان ذلك تفصيلاً، بارك الله في جهودكم وأيدكم بتوفيقه.

طالب علم

■ ج : شكر الله للأخ السائل حسن تأنيه وتثبته فيما ينقل إليه، وحرصه على المعرفة، ورغبته في الإستزادة من العلم، فقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿وقل رب زِدْني عِلْماً﴾[١].

وشكر الله له كذلك تقديره وتوقيره للرجال الكبار، الذين قاموا بدور بارز في إحياء هذه الأمة، وتجديد دينها، وإيقاظ وعيها، فهذه فضيلة طيبة يجب أن يثبت عليها، ويعض عليها بالنواجد، فإني أرى كثيرين - للأسف - لا هم لهم إلا هدم القمم، وتشويه الأبطال والعظماء، في تراثنا وفي حاضرنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وشكر الله له بعد ذلك حسن ظنه بي، وأرجو أن أكون أهلا لذلك، وأن أقول كلمة إنصاف في شأن الشيخ رشيد رحمه الله وجزاه عن دينه وأمته خيراً.

وأنا لا أنكر أني من أشد المعجبين بالشيخ رشيد، وأعتبره أحد مجددي الإسلام،

---

(١) سورة طه : ١١٤.

وواحـــداً من أعلامه الراسخين في العلم، المستقلين في الفكر، المجتهدين في الدين، وقد كـان لمجلتــه «المنار» وتفسيره، وكتبه، وفتاويه، أثر لا يجحد في تنبيه الأمة الإسلامية من غفلتهـــا، وتحريرها من أغلال التقليد التي وضعتها في أعناقها، والعمل على إعادتها إلى الينابيـع الصافية من كتاب ربها وسنة نبيها، وهدي سلفها الصالح في خير القرون، وتنقية الدين ممـا شابه وعلق بـه على مر العصور، من البـدع والزوائد والانحرافات التـي كدرت صفاءه، ولوثت نقاءه، والدعوة إلى الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة.

فهو في طليعـة دعاة السلفيـة، وأنصار السنـة المحمديـة، الذيـن أحيوا علـوم السلف ونوهـوا بها، وناصروا المدرسـة السلفية بـالعقل والنقـل، وبالبينـات التي تخاطـب العقل المعـاصر، وبالحجـج التي تـدحض شبهـات الخصوم، وافتراءات الأعـداء، وتدعـو إلى الإسلام في شمول وتكامل وتوازن، كما أنزله الله في كتابه، وبعث به رسوله (ﷺ).

ولايعني هذا أن الشيـخ رشيداً مبرأ من كل عيـب أو معصوم من كل خطـأ، فهذا ما لم يقله عن نفسه، وما لا نقوله نحن عنه. وقـد عاش عمره يحارب الذين يقدسون شيوخهم إلى حد يكاد يجعلهم معصومين لا يخطئون في قول أو فعل.

وأحب أن أبادر فأقول للأخ السائل الكريـم : هب أن الإمام المجدد السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، هفا هذه الهفوة التي تذكرها، وهي إنكاره لحديث من أحاديث الصحيحين أو أحـدهما، وانتقاده لسنـده أو متنه، فهـل يوجـب هذا أن نجحـد فضله، ونعـزله عـن منصب الإمـامة في الديـن، والاجتهاد فيـه لزلة يـزلها فكره وقلمه، أو لعثـرة تنزلـق فيها قدمه؟! وأي أمرىء يسلم من العثرات؟ وأي عالم تخلو صفحته من زلات؟

وقديماً قيل : لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة.

وقالوا : الكامل من عدت سقطاته، وأحصيت زلاته.

وقال الشاعر العربي :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المـرء نبلاً أن تعـد معايبـه

الأمر المهم في ذلـك ألا يكون ردّه للحديث المروي في الصحيح لهوى متبـع، سواء كان هوى النفس أم هوى الغير، ممن حذر الله منهم في مثل قوله **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِع أهواء الذين لا يعلمون﴾**[1].

(١) سورة الجاثية : ١٨.

وقال تعالى : ﴿ومن أضَلّ ممن اتَّبعَ هواه بغير هُدىً من الله﴾[1] .

وكم رأينا من الأئمة المتبوعين والمقبولين في الأمة من رد حديثاً ثابتاً عند غيره ولم يثبت عنده ؛ لعلة رآها . وربما روى هذا الحديث بعد في أحد الصحيحين أو في كليهما . ولم ينقص هذا من قدر هؤلاء ، ولم يخدش من إمامتهم شيئاً .

وقد رأينا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ترد بعض الأحاديث التي تسمعها من بعض الصحابة ، حين رأتها تخالف القرآن في رأيها ، أو تخالف ماسمعته هي من النبى (ﷺ) ، ولم يزدها هذا إلا فضلاً ورفعة عند الأمة .

ثم إنه لا يجوز أن يقال فيمن رد حديثاً أو حديثين من البخاري أو مسلم أو كليهما : إنه رد أحاديث الصحيحين أو كذبها ، فهذا تصوير غير صحيح للقضية ، واتهام فى غير موضعه .

هذا كله من ناحية المبدأ أوالشكل ، أما من ناحية الموضوع ، فإن الشيخ رشيداً لم يكذب الحديث المروى في السحر ولم ينكره ، تبعاً لشيخه الإمام محمد عبده ، فقد كان السيد رشيد- رغم إعجابه بعبقرية شيخه وإيمانه بقوة دينه وحبه لله ولرسوله - مستقلاً في تفكيره واجتهاداته ، وقد استفاد من عقلانية شيخه ، وثورة فكره ، ولكنه ضبطها بتبحره في السنة وتراث السلف .

والناظر في شخصيات المدرسة التجديدية الإحيائية الإسلامية التي بدأت بجمال الدين الأفغاني ، يجد أن أولها - وهو السيد جمال الدين - كان أكثرها انطلاقاً ، وأقلها انضباطاً بقيود الشرع وضوابط الكتاب والسنة ، فقد كان أقلهم حظاً من التبحر في علوم الشريعة ومصادرها ، ونجد تلميذه وصديقه الأستاذ الإمام محمد عبده أقرب إلى الإلتزام والإنضباط منه ؛ لأنه أكثر علماً بالشرع ، وأكثر تبحراً في معارفه بحكم تكوينه الأزهرى الأصيل ، ونجد تلميذ الأستاذ الإمام رشيد رضا أكثر التزاماً ، وانضباطاً من شيخه ، وشيخ شيخه من باب أولى .

فقد أتيح له أن يطلع على آثار المدرسة السلفية التجديدية الكبرى المتمثلة في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، ومن خلالها اطلع على التراث السلفي الضخم ، واستطاع أن

(١) سورة القصص : ٥٠ .

ينهل منه، وينتفع به في دعوته للإصلاح والتجديد. فالسيد جمال الدين أقرب إلى عقلية «الفلاسفة»، أعنى فلاسفة المدرسة المشائية الإسلامية من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم.

والإمام محمد عبده أقرب إلى عقلية المتكلمين من أمثال الباقلاني وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم.

والسيد رشيد أقرب إلى عقلية «فقهاء المحدثين» الجامعين بين المعقول والمنقول، أمثال الإمام محمد بن إدريس الشافعي وابن دقيق العيد، وابن تيمية وابن القيم وابن الوزير وأمثالهم.

وقول السائل: إن الشيخ محمد عبده أنكر حديث السحر، تبعاً للمعتزلة في ذلك، غير مسلَّم على إطلاقه.

فليس المعتزلة وحدهم هم الذين أنكروا حديث السحر، فقد أنكره بعض أهل السنة أيضاً، مثل الإمام أبي بكر الرازى الحنفي المعروف بالجصاص، صاحب كتاب: «أحكام القرآن» وبعض المتكلمين.

ولكن جمهور علماء أهل السنة أثبتوا الحديث، لروايته من طرق صحيحة، وكان لهم في توجيهه تأويلات شتى، كلها تؤكد عصمة النبى (ﷺ)، وتنفي عنه مالا يليق به، كما حفلت بذلك كتب الشروح.

ولم يخرج صاحب المنار السيد رشيد عن خطهم في الجملة، بل أثبت الحديث، وأوله التأويل اللائق بمنصب النبوة، ومقتضى العصمة.

*** نص الحديث وكلام الشراح عليه:**

ويحسن بنا أن نسوق نص الحديث كما رواه البخاري، ونسوق رأي بعض الشراح فيه، ثم نختم برأي الشيخ رشيد الذي خطه بقلمه في تفسير سورة «الفلق» ورده فيه على من اتهمه بتكذيب البخاري.

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله (ﷺ) رجل من بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله (ﷺ) يخيل إليه أنه كان يفعل

الشيء وما فعلـه[1] . حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهـو عندى، لكنه دعا ودعا ثم قال : «ياعائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه [2] ؟ أتاني رجلان [3]، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخـر عند رجلي فقال أحدهما لصـاحبه : ما وجع الـرجل؟ فقال : مطبوب[4] . قال : من طبّه؟ قال : لبيد بن الأعصم، قال : في أي شيء؟ قال : في مُشْط[5] ومُشاطة[6] وجف طَلْع نخلة ذكر[7] . قال : وأين هو؟ قال : في بئر ذروانَ» . فأتاها رسول الله (ﷺ) في ناس من أصحابه . فجاء فقال : «ياعائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء[8]، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشيـاطين[9] » . قلت : يارسول الله أفلا استخـرجته؟ قال : «قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً» . فأمر بها فدفنت[10] .

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في «الفتح» :

قوله «باب السحر» قال الراغب وغيره : السحر يطلق على معان :

أحـدهـا : ما لطف ودق، ومنه سحرت الصبي خادعته واستملته، وكل من استمال شيئاً فقد سحر، ومنه قول الأطباء : الطبيعـة ساحرة، ومنه قوله تعالى : ﴿**بل نحـن قوم مسحورون**﴾[11] أي مصروفون عن المعرفة، ومنه حديث «إن من البيان سحراً»، وسيأتي قريباً في باب مفرد .

الثـــاني : ما يقـع بخداع وتخييـلات لا حقيقة لها، نحو مـايفعله المشعـوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده، وإلى ذلـك الإشارة بقوله تعالى : ﴿**يُخَيَّل إليه مـن سحْرهم أنها تَسْعَى**﴾[12] وقوله تعالى : ﴿**سحروا أعين الناس**﴾[13] ومن هنا سموا موسى سَاحِراً، وقد يستعين في ذلك بما يكون فيه خاصية بالحجر الذي يجذب الحديد المسمى المغناطيس .

---

(١) في رواية البخاري من حديث في باب هـل يستخرج السحر حديث (٥٧٦٥) من طريق ابن عيينة أن عائشة قـالت : «حتى كان يرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهن»، وهو تفسير وبيان لما أجمل وعمم في هذه الرواية .

(٢) أي أجابني فيما دعوته فيه .

(٣) في رواية عند أحمد والطبراني : أتاني ملكان .

(٤) مطبوب : أي مسحور، يقال : طب بضم الطاء إذا سحر كنوا عن الطب تفاؤلاً .

(٥) المشط : معروف وهو مايسرح به شعر الرأس واللحية .

(٦) المشاطة : ما يخرج من الشعر الذي يسقط من الرأس إذا سرح بالمشط، وكذا من اللحية . كما قال ابن قتيبة .

(٧) وهو الغشاء الذي يكون على الطلع .

(٨) أي أن لون مائها أحمر كالماء الذي ينقع فيه الحناء .

(٩) تشبيه يراد منه التقبيح ؛ لأن كل ما ينسب إلى الشيطان مستقبح شرعاً وعرفاً .

(١٠) أخرجه البخاري في : كتاب الطب . باب السحر . حديـث (٥٧٦٣) . البخاري المطبوع مع الفتح . ط . دار الفكر بيروت، المصورة عن السلفية بالقاهرة .

(١١) ســورة الحجـر : ١٥ (١٢) ســورة طـه : ١٥ . (١٣) ســورة الأعــراف : ١١٦ .

الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم، وإلى ذلك الإشارة قوله تعالى : ﴿**ولكن الشياطين كفروا يُعَلِّمُون الناس السحر**﴾[1] .

الرابع : مايحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم .

قال ابن حزم : ومنه مايوجد من الطلسمات كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب، فينفع إمساكه من لدغة العقرب، وكالمشاهد ببعض بلاد الغرب - وهي سرقسطة - فإنها لا يدخلها ثعبان قط إلا إن كان بغير إرادته، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين الأخيرين، كالإستعانة بالشياطين، ومخاطبة الكواكب فيكون ذلك أقوى بزعمهم .

قال أبو بكر الرازي في «الأحكام» له : كان أهل بابل قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة، ويعتقدون أنها الفعالة لكل مافي العالم، وعملوا أوثاناً على أسمائها، ولكل واحد هيكل فيه صنمه يتقرب إليه بما يوافقه بزعمهم من أدعية وبخور، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام وكانت علومهم أحكام النجوم، ومع ذلك فكان السحرة منهم يستعملون سائر وجوه السحر وينسبونها إلى فعل الكواكب، لئلا يبحث عنها وينكشف تمويههم .

ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحر بها ، ويطلق ويراد به فعل الساحر، والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط كالرقى والنفث في العقد، وتارة تكون بالمحسوسات كتصوير الصور على صورة المسحور، وتارة بجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ .

واختلف في السحر فقيل : هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وهذا اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الرازي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وطائفة .

قال النووي : والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة . لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عليه أو لا؟ فمن قال : إنه تخييل فقط منع ذلك، ومن قال : إنه له حقيقة اختلفوا : هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

فالـذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبـت طائفة قليلـة إلى الثاني، فإن كان بـالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلـم، وإن كان بالنظر إلى الواقـع فهو محل خلاف، فإن كثيراً ممـن يدعى ذلك لايستطيع إقامة البرهان عليه.

وقال الخطابي: إن قوماً أنكروا السحر مطلقاً، وكأنه عنى القائلين بأنه تخييل فقط وإلا فهي مكابرة.

وقـال المازري: جمهـور العلماء على إثبـات السحر، وأن لـه حقيقـة، ونفـي بعضهـم حقيقته، وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة وهو مورود، لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقـل لاينكر أن الله قـد يخرق العادة عنـد نطق السـاحـر بكلام ملفـق، أو تركيـب أجسام أو مزج بين قوى على تـرتيب مخصوص، ونظير ذلك مايقع مـن حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً.

وقيل: لا يـزيد تـأثير السحر على مـاذكر الله تعـالى في قولـه ﴿يُفَـرِّقُـون بـه بين المرء وزوجه﴾[1] لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره.

وقال المازري: والصحيـح من جهـة العقل أنه يجوز أن يقـع به أكثـر من ذلـك، قال: والآية ليسـت نصاً في منـع الزيـادة، ولو قلنا إنها ظـاهرة في ذلـك، ثم قـال: والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم الساحر بما يريد والكرامـة لا تحتاج إلى ذلـك بل إنما تقـع غالباً اتفـاقاً، وأمـا المعجزة فتمتـاز عن الكـرامة بالتحدي.

ونقل النووي في زيادات الروضة عن المتـولى نحو ذلك، وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فـإن كان متمسكاً بالشريعـة، متجنباً للموبقـات، فالذي يظهر على يـده من الخوارق كرامة، وإلا فهو سحر؛ لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين.

وقال القـرطبي: السحـر حيل صنـاعية يتـوصل إليهـا بالإكتسـاب، غير أنها لدقتهـا لايتوصـل إليها إلا آحـاد الناس، ومـادته الـوقوف على خـواص الأشياء والعلـم بوجـوه تركيبها وأوقـاته، وأكثرها تخييـلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظـم عند من لايعرف ذلك كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وجاءوا بِسِحْرٍ عظيم﴾[2].

---

(١) سـورة البقـرة: ١٠٢

(٢) سـورة الأعـراف: ١١٦.

مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصياً. ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيواناً أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك.

قوله: «سحر النبى (ﷺ) رجل من بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم» ووقع في رواية عبدالله بن نمير عن هشام بن عروة عند مسلم «سحر النبى (ﷺ) من يهود بنى زريق حليف اليهود وكان منافقاً»، ويجمع بينهما بأن من أطلق أنه يهودي نظر إلى مافي نفس الأمر، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره.

وقال ابن الجوزي: هذا يدل على أنه كان أسلم نفاقاً وهو واضح، وقد حكى عياض في «الشفاء» أنه كان أسلم.

ويحتمل أن يكون قيل له يهودي؛ لكونه كان من حلفائهم، لا أنه كان على دينهم.

وبنو زريق بطن من الأنصار مشهور من الخزرج، و كان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهود قبل الإسلام حلف وإخاء وود، فلما جاء الإسلام ودخل الأنصار فيه تبرءوا منهم.

قوله: «حتى كان رسول الله (ﷺ) يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ومافعله» قال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحطّ منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ماأدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، وقال المازري: وهذا كله مردود؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبى (ﷺ) فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ماقام الدليل على خلافه باطل. وأما مايتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يتعرض البشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لاحقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان (ﷺ) يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطئهن، وهذا كثير مايقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة.

قلت – القائل ابن حجر – : وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عيينة في الباب الذي يلي هذا، ولفظه: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن» وفي رواية الحميدي «أنه يأتي أهله ولا يأتيهم، قال الداودي: «يُرَى» بضم أوله أي يظن، وقال ابن التين: ضبطت «يرى» بفتح أوله، قلت: وهو من الرأى لا من الرؤية، فيرجع إلى معنى الظن. وفي مرسل يحيى بن يعمر عند عبدالرزاق «سحر النبى (ﷺ) عن عائشة حتى أنكر بصره» وعنده في مرسل سعيد بن المسيب «حتى كاد ينكر بصره».

قال عياض: فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده، وظواهر جو ارحه لا على تمييزه ومعتقده.

قلت: ووقع في مرسل عبدالرحمن بن كعب عند ابن سعد «فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبياً فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله». قلت: «فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحيح».

وقد قال بعض العلماء: لايلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك. وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولايثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخييل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ماألفه من سباق عادته من الإقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن «المعقود»[1]، ويكون قوله في الرواية الأخرى «حتى كاد ينكر بصره» أي صار كالذي أنكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل أنه على غير صفته، فإذا تأمله عرف حقيقته. ويؤيد جميع ماتقدم أنه لم ينقل عنه فى خبر من الأخبار: أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به.

وقال المهلب: صون النبى (ﷺ) من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، فقد مضى في الصحيح أن شيطاناً أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه، فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصاً على مايتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ماكان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفعل، أو حدوث تخيل لايستمر، بل يزول ويبطل الله كيد الشياطين.

---

(١) المعقود: ويسمى عرفاً المربوط، وهو من حبسه السحر عن القدرة على الإتصال بزوجته.

واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله»، وفي الإستدلال بذلك نظر، لكن يؤيد المدعى أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل: «فكان يدور ولا يدري ما وجعه»، وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد: «مرض النبى (ﷺ) وأُخِذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان» الحديث.

قوله: «وهو عندى لكنه دعا ودعا» كذا وقع، وفي الرواية الماضية في بدء الخلق «حتى كان ذات يوم دعا ودعا»، وكذا علقه المصنف لعيسى بن يونس في الدعوات، ومثله في رواية الليث. قال الكرماني: يحتمل أن يكون هذا الاستدارك من قولها «عندى» أي لم يكن مشتغلا بي بل اشتغل بالدعاء، ويحتمل أن يكون من التخيل، أي كان السحر أضره في بدنه لا في عقله وفهمه بحيث إنه توجه إلى الله ودعا على الوضع الصحيح والقانون المستقيم.

ووقع في رواية ابن نمير عند مسلم: «فدعا، ثم دعا، ثم دعا» وهذا هو المعهود منه أنه كان يكرر الدعاء ثلاثاً. وفي رواية وهيب عند أحمد وابن سعد: فرأيته يدعو.

قال النووي: فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره والالتجاء إلى الله تعالى في دفع ذلك.

قلت - القائل ابن حجر -: سلك النبى (ﷺ) في هذه القصة مسلكى التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه، فاحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشى من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته، جنح إلى التداوى، ثم إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية في الكمال.

قوله: «قلت: يارسول الله أفلا استخرجته» في رواية أبي أسامة، «فقال: لا» ووقع في رواية ابن عيينة أنه استخرجه، وأن سؤال عائشة إنما وقع عن النشرة فأجابها بلا، وسيأتي بسط القول فيه بعد باب.

قوله: «فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً» في رواية الكشميهني: «سوءاً» ورفع في رواية أبي أسامة «أن أُثَوِّر» بفتح المثلثة وتشديد الواو وهما بمعنى، والمراد بالناس التعميم في الموجودين.

قال النووي: خشى من إخراجه وإشاعته ضرراً على المسلمين من تذكر السحر وتعلمه ونحو ذلك، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة.

ووقع في رواية ابن نمير «على أمتى» وهو قابل أيضاً للتعميم؛ لأنه الأمة تطلق على أمة الإجابة وأمة الدعوة وعلى ماهو أعم، وهو يرد على من زعم أن المراد بالناس هنا لبيد ابن الأعصم؛ لأنه كان منافقاً فأراد (ﷺ) ألا يثير عليه شراً؛ لأنه كان يؤثر الإغضاء عمن يظهر الإسلام، ولو صدر منه ماصدر، وقد وقع أيضاً في رواية ابن عيينة، وكرهت أن أثير على أحد من الناس شراً.

نعم، وقع في حديث عمرة عن عائشة، فقيل: يارسول الله لو قتلته، قال «ماوراءه من عذاب الله أشد»، وفي رواية عمرة: «فأخذه النبى (ﷺ) فاعترف فعفا عنه»، وفي حديث زيد بن أرقم: «فما ذكر رسول الله (ﷺ) لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به ولا رآه في وجهه».

وفي مرسل عمر بن الحكم: «فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: حب الدنانير».

وقد تقدم في كتاب الجزية قول ابن شهاب أن النبى (ﷺ) لم يقتله.

وأخرج ابن سعد من مرسل عكرمة أيضا أنه لم يقتله، ونقل عن الواقدى أن ذلك أصح من رواية من قال إنه قتله، ومن ثم حكى عياض في «الشفاء» قولين: هل قتل، أم لم يقتل؟

وقال القرطبي: لا حجة على مالك[1] من هذه القصة؛ لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أولئلا ينفر الناس من الدخول في الإسلام، وهو من جنس مارعاه النبى (ﷺ) من منع قتل المنافقين حيث قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[2] أهـ.[3].

هذا بعض ماذكره الشراح حول حديث سحر اليهود للنبى (ﷺ)، وهو يبين مدى ما أثاره الحديث من استشكالات، ومدى اهتمام العلماء بمواجهتها ببينات النقل والعقل.

فلا عجب أن يكون هذا الحديث مثار اهتمام لدى العقل الحديث، وخصوصاً بعد التقائه بعقول الآخرين، وتعرفه على أفكارهم.

ومن هنا تكلم فيه العلامة رشيد رضا، لا كلام النافي له أو المكذب، بل كلام من يصدق به ويؤوله أحسن تأويل، يقنع أهل العقل والنظر ولا يرده أهل النقل والأثر.

---

(١) أي في قوله بقتل الساحر.

(٢) الحديث (٥٧٦٣).

(٣) فتح الباري ١٠ / ٢٢١ - ٢٣٢.

وإليك ماذكره في نهاية تفسير سورة الفلق، من قصار السور تحت عنوان: علاوة لتفسير السورة في حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبى (ﷺ).

وبعد أن ذكر رواية الشيخين للحديث من طريق عائشة رضى الله عنها وهي التي أوردناها من قبل أشار إلى الرواية الأخرى، حيث قال: وفي رواية الشيخين: كان (ﷺ) سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن بنحوه، وفيه: سحره رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقاً[1]، وعن زيد بن أرقم سحر النبى (ﷺ) رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا فأرسل (ﷺ) فاستخرجها فحلها فقام كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط. رواه النسائي. والأيام جمع قلة، ولكن بالغ بعض الرواة في غير الصحيحين فجعلوها أشهراً.

قال السيد رشيد: فهذا الحديث صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء، ولكن فهم أكثر العلماء أنه (ﷺ) سحر سحراً أثر في عقله، كما أثر في جسده، فأنكره بعضهم، وبالغوا في إنكاره، وعدوه مطعناً في النبوة، ومنافياً للعصمة؛ لقول عائشة: حتى إنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء، ولم يكن فعله. فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول، وعدوها مخالفة للقطعى فى النقل، وهو ماحكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم: ﴿**إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ وتفنيده تعالى لهم بقوله: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا**﴾[2]. ومخالفة للقطعى في العقل من عصمة النبى (ﷺ) من كل ما ينافي النبوة والثقة بها؛ إذ يدخل في ذلك التخييل ماهو من التشريع، ومخالفة لعلم النفس الذي يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة، فأنكر صحة الرواية بعض العلماء، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء: أبو بكر الجصاص في كتابه «أحكام القرآن» وآخرهم: شيخنا الإمام في تفسيره «جزء عم».

وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه. وبنى إنكاره له على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظنى للقطعى، إذ الحديث آحادى، وهو يفيد الظن، فيرد بالقطعى عقلاً ونقلاً، وهو ماذكرناه آنفاً، وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يحتج

(١) بنو زريق بطن من الخزرج فهو على هذه الرواية يهودي بالحلف لا بالنسب.
(٢) سورة الفرقان: ٨، ٩.

بها في أصول العقائد . وقال : إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده، وإن له أن يتأوله أو يفوض الأمر فيه، على قاعدتهم الأخرى في النصوص المعارضة للعقل . ولعمرى إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده قدس الله روحه من إجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين في نفسه الزكية، وروحه القدسية، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته (ﷺ) وحسبك منها تلك الآثارة البليغة في رسالة التوحيد، بل كان يقول : إن روحه (ﷺ) كانت منطوية على جملة هداية الدين ومدارك التشريع التي فصلت في كتاب الله تعالى وسنته تفصيلاً تاماً، كما نقلناه عنه في تاريخه .

وأجاب عن الرواية المحدثون المصححون لها علماً والمقلدون لهم بأن غاية ماتدل عليه : أن ذلك السحر إنما أثر في بدنه دون روحه وعقله، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية، كالأمراض التي لم يعصم الأنبياء عليهم السلام منها .

وقد محصت هذه المسألة مراراً آخرها في الرد على مجلة الأزهر «نور الإسلام» في زعمها المفترى أنني كذّبتُ حديث البخاري في سحر النبى (ﷺ) فبينت : أن الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة رضى الله عنها توهم عبارة بعض رواياته ماهو أعم من المعنى الخاص الذي أرادته منه، وهو مباشرة الزوجية بينه (ﷺ) وبينها، فقولها : كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لم يفعله كناية عن هذا الشيء الخاص، لا عام في كل شيء ، فلا يدخل فيه شيء من أمور التشريع ، ولا غير غشيان الزوجية من الأمور العقلية، أو الأمراض البدنية، فضلاً عما كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتى الآن «الربط» أو «العقد» أي عقد الرجل المانع من مباشرة زوجته فقط .

وبينت أيضا : أن الرواية في أصح أسانيدها عند الشيخين عن هشام عن أبيه عن عائشة فيها علة من علل الحديث الخفية التي يشترط في صحة الحديث السلامة منها، وهي أن بعض منكري الحديث أعلوه بهشام هذا، وألف بعضهم كتاباً خاصاً فيه، محتجاً بقول بعض علماء الجرح والتعديل : إنه كان في العراق يرسل عن أبيه عروة بن الزبير ماسمعه من غيره، وعروة هو راوية عائشة الثقة، وهي خالته، وقال ابن خراش : كان مالك

لايرضاه، يعنى هشاماً، وقد نقم منه حديثه لأهل العراق، وقال ابن القطان : تغير قبل موته. ولاشك أن تعديل الجماعة له - ومنهم الشيخان - خاص بما رواه قبل تغيره، فهذا عذر من طعن في روايته لهذا الحديث الذي أنكروا متنه بما علمت، والأمر فيه أهون مما قالوا[1] فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجية، كما جاء التصريح به في الرواية الثانية كما تقدم، ولا يعتد بغير هذا.

أما مارواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس في مرضه (ﷺ) وأنه كان شديداً، وأنه كان سحراً في بئر تحت صخرة في كربة، وأنهم أخرجوها فأحرقوها فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت عليه هاتان السورتان - يعنى المعوذتين - فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة. اهـ ملخصاً فهذا حديث باطل مخالف لحديث الصحيحين في المسألة، ولروايات نزول السورتين بمكة، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي هذا متهم بالكذب، وطريقه أوهى الطرق عن ابن عباس، وإسمه محمد بن السائب.

وأما مارواه أبو نعيم في الدلائل عن أنس قال: صنعت اليهود للنبى (ﷺ) شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد، فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألم به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما، فخرج إلى أصحابه صحيحاً، فهو من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، وهما ضعيفان. وليس في متنه ذكر السحر ولا أن المعوذتين نزلتا في ذلك الوقت، ولا في أي شيء من روايات الصحيحين. فالإستدلال به على أنهما مدنيتان ضعيف، فالحق أنهما مكيتان كما تقدم . أهـ.

هذا هو كلام العلامة السيد رشيد رحمه الله تعالى في الحديث وتأويله، وهو كلام عالم فقيه جارٍ على نهج المحدثين الأصلاء، في الجرح والتعديل، والشرح والتعليل، وهو كلام إمام مصلح، حريص على البناء لا الهدم، وعلى التجديد لا التبديد، يعرف قدر السلف، ولا ينكر حق الخلف. يخالف شيخه، ولكنه يدافع عنه ويؤكد مقدار حبه وتوقيره لرسول الله (ﷺ) وهذا هو العدل والإنصاف. فرضى الله عن الشيخ رشيد وجزاه عن الإسلام وأمته خيراً وأثابه على كل ما اجتهد فيه، أخطأ أو أصاب: أجراً أو أجرين. آمين.

---

(١) راجع تفصيل المسألة في : كتاب المنار والأزهر ص ٩٥ - ١٠٥ .